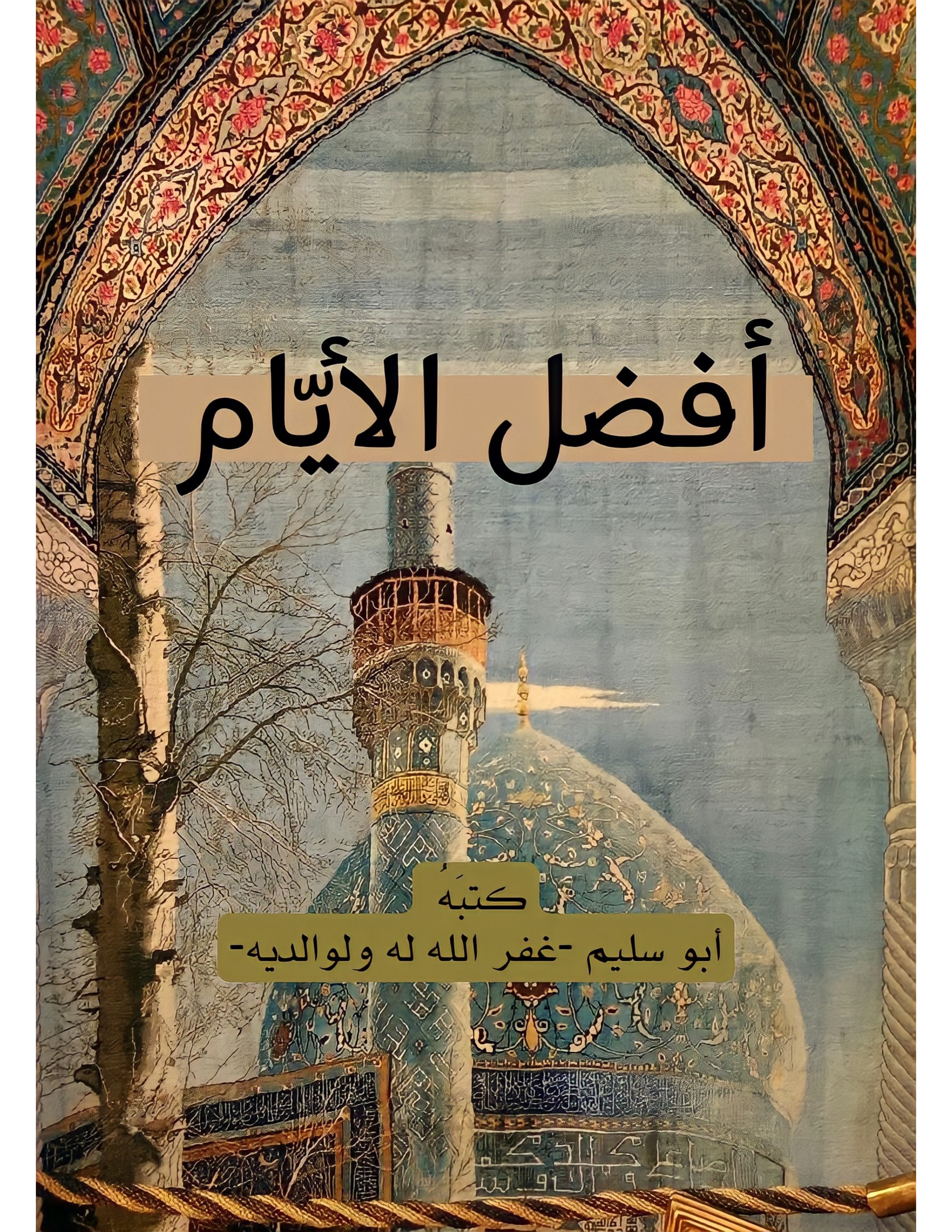

أفضل الأيّام
كتبَهُ
أبو سليم -غفر الله له ولوالديه-

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مُنزل القَطر، مُجزل الأجر، أهلُ الثناء والشكر، أنْ بلّغنا العشر، والصلاة والسلام على نبيه محمد ﷺ خير البشر وآله أجمعين .. وبعد:

من الفرح المأمورون –نحن- به الفرحُ بآلاء الله ونعمائه ﴿قُل بِفَضلِ اللَّهِ وَبِرَحمَتِهِ فَبِذلِكَ فَليَفرَحوا هُوَ خَيرٌ مِمّا يَجمَعونَ﴾ فجعله الله تباينًا في فضائل الأزمان والبلدان والأعمال التي تعقبها رحمته، فكانت صلاة الليل أفضل من النهار من جهة التطوّع المطلق، والصلاة في حرم مكّة خير من قرى الأسياح، والقرآن خير من غيره في أحوال؛ حتى يتوافق مع تنوّع النفوس. وليس في أيَّام العام فَضلٌ كالذي في عشر ذي الحجَّة الأُوَل التي عدّ تعالى زمنها أعظم الأزمنة عنده، وعمالها أحبُّ الأعمال إليه، وقد ورد فيها من الفضائل ما لو أراد الإنسان أن يحصيها من جهة الشمول ومن جهة عمل المتعبدين لم يكن ليرفع رأسه عن أوراقه إلا بصفعة صوت خطيب العيد الجهور وهو يتحدث عن وقت ذبح الأضحية، وكلُّ ذلك دون بلوغٍ للمرام.

فضلُ عشر ذي الحجّة على سائر الأيام كفضل النهار على الليل فقد ذكرها الله في القرآن في موضعين فقال تعالى: ﴿وَيَذكُرُوا اسمَ اللهِ في أَيّامٍ مَعلوماتٍ﴾ والأيام المعلومات هي عشر ذي الحجة كما قال ابن عباس، وفي هذا زيادةُ شرفٍ فما اقترن ذكر الله في موضعٍ إلا لعِظَمه كما أمرنا في الصلاة وهي عامود الإسلام ففي الحديث: "لَا صَلَاةَ لِمَن لَمْ يَقْرَأْ بفَاتِحَةِ الكِتَابِ"، وفي الجهاد وهو سنام الإسلام ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا إِذا لَقيتُم فِئَةً فَاثبُتوا وَاذكُرُوا اللهَ كَثيرًا﴾. وذُكرت العشر في موضعٍ آخر يزيدها عظمة وهو أنَّ الله جل جلاله أقسم بها والعظيم لا يُقسم إلَّا بعظيم ﴿وَالفَجرِ ۝ وَلَيالٍ عَشرٍ﴾ قال عكرمة: هي عشر الأضحى. وقد جاء عن غير واحد من المفسرين أن الليالي –الأربعين- التي واعد الله فيه موسى ﴿وَواعَدنا موسى ثَلاثينَ لَيلَةً وَ أَتمَمناها بِعَشرٍ فَتَمَّ ميقاتُ رَبِّهِ أَربَعينَ لَيلَةً﴾ هي ليالي شهر ذي القعدة

وعشر ذي الحجة كما روي ذلك عن ابن عباس وعن مجاهد وغيرهم. وفي الحديث: "ما من أيَّامٍ العملُ الصَّالحُ فيهنَّ أحبُّ إلى اللهِ من هذه الأيَّامِ العشرِ، فقالوا -الصحابة-:يا رسولَ اللهِ ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ؟ فقال: رسولُ اللهِ ﷺ ولا الجهادُ في سبيلِ اللهِ إلَّا رجلٌ خرجَ بنفسِهِ ومالِهِ فلمْ يرجعْ مِنْ ذلكَ بشيءٍ" تأمل جيدًا كيف عبَّر ﷺ عن شدَّة محبَّة الله للعمل في هذه الأيَّام، ولحظة وقوع الكلمات على آذان الصحابة واندهاشهم بمكانة تلك الأيام حتى وضعوا مقارنةً بينها وبين بين خير الأعمال بعد الأركان، وحبُّ الله للشيء يزيده رِفعَه ولو كان دانٍ، وشرفًا ولو كان مهملًا لا يُعْبَأ به كما روى البخاري في الحديث القدسي عن ما يحدث إذا أحبَّ الله العبد:"فإذا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها ... " فدَلَّ هذا أن محبَّة الله تُرْبِي الشيء بركتهُ وفضلهُ وشرفهُ حتّى لا يكون كنظائره من نفس الجنس والنوع. وبلغ فيها -عشر الأضحى- أن نوافلها خيرٌ من نوافل العشر الأواخر من رمضان، العشر الأواخر تلك التي اشتغل بها الناس أيما شغل في الصدقات والذِكر والسُنَن حتى لا تكاد تجد مضيِّعًا ليومه كلَّه دون أدنى نفلٍ يؤديه. أمَّا هذه العشر فلَم تُرعَ حقَّ رعايتها حتَّى ظُنَّ أنَّ فضلها خاصٌ للحجيج دون من سواهم، ونَبُه لها أقليَّة ممن وفَّقهم الله لخير الأعمال، في خير الأوقات، في خير الأحوال؛ فإنَّ العبادة في الأوقات التي ينشغل الناس فيها بالدنيا هي من أعظم العبادات فقد روى مسلم في حديث معقل بن يسار أنَّه ﷺ قال:"الْعِبادَةُ في الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إلَيَّ" والهرج هو انهماك الناس في الدنيا، فزاد فضل هذه الأعمال في هذه الأيَّام بانشغال الناس على فضلها السابق بمحبَّة الله لها. فحقيقٌ بوجوهنا اللاهية أن تتلطخ بحُمرة الخجل والانكساف إذا فرطنا بيومٍ من هذا الزمان الفاضل بيسير عملٍ يخلفه جزاءٌ جزل!

قُبيل أيّ وقتٍ فاضل -كالعشر الأوائل- يكون إعداد العُدَّة هو مما يستبين به صِدق القاصد لمقصده ﴿وَلَو أَرادُوا الخُروجَ لَأَعَدّوا لَهُ عُدَّةً وَلكِن كَرِهَ اللهُ انبِعاثَهُم فَثَبَّطَهُم وَقيلَ اقعُدوا مَعَ القاعِدينَ﴾ ويخشى الإنسان أنَّ الله كَرِه انبعاثه فثبَّطه عن إعداد عدَّة لذلك الزمن؛ فإنَّ التاجر لو علم بموسمٍ سترتفع به أسعار الأصواف ارتفاعًا لم يشهد السوق مثله لبذل الغالي والنفيس لشراء الأصواف استعدادًا لذلك الموسم، وكذلك تجارة المسلم في مواسم الطاعات وهو ممن ﴿يرجونَ تِجارَةً لَن تَبورَ﴾. ومن أهمِّ العُدَّة في العشر الأوائل تبييت النيَّة لكل الأعمال الصالحة فَرضها ونفلها ومعرفة أفضل الأعمال فيها، فإن لم يعمل منها شيء كُتبت له حسنة واحدة ففي الحديث: "مَن هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها، كُتِبَتْ له حَسَنَةً" فإن عمل منها شيء فأجرٌ إلى سبعة ضعف ففي الحديث عينه: "ومَن هَمَّ بحَسَنَةٍ فَعَمِلَها، كُتِبَتْ له عَشْرًا إلى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ".

لم تجتمع أصول العبادات من الأركان في أيّامٍ سوى العشر الأُوَل ومن ذلك:-

1. التوحيد: ففيها التكبير، والتهليل، والتحميد. روى الطبراني والبيهقي وغيرهم في حديث العشر أنه ﷺ قال: "ما من أيَّامٍ أفضلُ عند اللهِ ولا العملُ فيهنَّ أحبُّ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ من هذه الأيَّامِ -يعني من العشرِ- فأكثِروا فيهنَّ من التَّهليلِ والتَّكبير وذكرِ اللهِ" وسبق معنا بيان فضل ذكر الله فيحرص الإنسان أن يكون حدّهُ الأدنى 75 صفحة وِردًا من القرآن حتَّىٰ يوافق الختمة في ثماني أيَّام وإن زاد فهو خير؛ لكي يشتغل في اليوم التاسع -عرفة- بالدعاء والذكر ونحوه.

2. الصلاة: وفيها من أمور الصلوات المفروضة صلاةُ العيد التي هي من جملة أحبُّ الأعمال إلى الله ففي الحديث القدسي: "وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ" وصلاة العيد هي واجبة قبل النحر ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انحَر﴾

والوجوب للجنسين لما رواه البخاري في الحديث الطويل عن وجوبه للنسوة أنَّه ﷺ قال: "لِتَخْرُجِ العَوَاتِقُ ذَوَاتُ الخُدُورِ، والحُيَّضُ فَيَشْهَدْنَ الخَيْرَ ودَعْوَةَ المُسْلِمِينَ، ويَعْتَزِلُ الحُيَّضُ المُصَلَّى"

3. الزكاة: وفيها الصدقة التي يقتسمها الإنسان من أضحيته ويطعم بها بطون الفقراء الخاوية ويسلّيهم بها عن بؤس حالهم ﴿فَكُلوا مِنها وَأَطعِمُوا البائِسَ الفَقيرَ﴾ والصدقة بوجه العموم في سائر العشر مستحبة، ويحب الله الدوام فيها إلى غيرها من الأيّام والأعمال ولو باليسير ففي الحديث الذي رواه مسلم: "سُئِلَ -ﷺ- أَيُّ العَمَلِ أَحَبُّ إلى اللهِ؟ قالَ: أَدْوَمُهُ وإنْ قَلَّ".

4. الصيام: وفيهِ استحباب صيام الأَيَّام التسع عمومًا وعرفة خصوصًا، فقد روى الترمذي في سننه عن أحد أزواجه ﷺ:"كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصُومُ تِسْعَ ذِي الْحِجَّةِ" وفي لفظ "لم يكن يدع صيامها". ولا بد من بيان فضل الصيام لما اجتمع به من عملين: الصوم، والصبر. الإنسان لو قيل له سيكافئك الملك لتوقّع أعظمَ أعظمَ العطايا فكيف لو قيل له سيكافئك مالك المُلك وملك الملوك؟! يقول ﷺ: "كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، إلى سَبْعِ مِائَة ضِعْفٍ، قالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إلَّا الصَّوْمَ؛ فإنَّه لي، وَأَنَا أَجْزِي به" ما بعد السبع مئة لا يمكن للعقل تصوّره لأنه ليس من نفسٍ بشرية تتكلف الكرم تكلُّفًا وتخشى نفاد ما عندها بل من رزّاقٍ كريم لا ينفد ما عنده ﴿ما عِندَكُم يَنفَدُ وَما عِندَ اللَّهِ باقٍ وَلَنَجزِيَنَّ الَّذينَ صَبَروا أَجرَهُم بِأَحسَنِ ما كانوا يَعمَلونَ﴾ وفي موضعٍ آخر بيّن الله أجر الصابر في صومٍ وفي غيره فقال:﴿إِنَّما يُوَفَّى الصّابِرونَ أَجرَهُم بِغَيرِ حِسابٍ﴾ تتلعثم لغة الأرقام أمام هذا المعطى الحسابي الذي لا يحصيه عددًا إلا خالقه.

5. الحج: وهو أظهر ما في هذه الأيام والمقرون بها ولا يكون في غيرها وله من الفضل ما لا يخفى على مسلم ويكفي أنّ الإنسان الحاج يعود صِفر اليدين من الذنوب ويسعنا هنا ذكر قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النّاسِ حِجُّ البَيتِ مَنِ استَطاعَ إِلَيهِ سَبيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ العالَمينَ﴾ فقُدّم لفظ الجلالة بقولهِ:﴿وَلِلَّهِ﴾ توكيدًا لغرض الحج أنّه كائنٌ لأجل تأليه الله وتعظيمه وإفراده بالعبادة.

واجتماع أصول العبادات من أركان الإسلام في زمنٍ معيّن مؤذنٌ بتعظيم تلك الأيّام، فمن شهد أفضل الأيّام حريٌ به ألّا يخرج منها خالي الوفاض، قليل الزاد، مردود البضاعة. فلا يدري المرء أفي عامه القادم مميتٌ للأضاحي هو أم ميّت! قد يتعجّب من ذكري هذا الأمر حدثاء الأسنان من أقراني بل قد يكرهون اضطرابه في آذانهم كراهةً للموت ظنًا أنه من الشؤم والفأل القبيح وحقيقة الأمر أنّه أبعد ما يكون عن ذلك فقد نبّه الله في مواضع من القرآن في كلِّ مرةٍ نقرؤه كما في قوله تعالى: ﴿وَما تَدري نَفسٌ بِأَيِّ أَرضٍ تَموتُ﴾ وها نحن ذا -واللهِ- ما يمضي اليوم واليومين إلّا وأكتاف الرجال تحمل النعش إلى مقبرةٍ مكتضة، وأصابنا من كثرة المساس ما أفقدنا الإحساس وزعمنا الخلود والله يقول: ﴿كُلُّ نَفسٍ ذائِقَةُ المَوتِ وَإِنَّما تُوَفَّونَ أُجورَكُم يَومَ القِيامَةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا الحَياةُ الدُّنيا إِلّا مَتاعُ الغُرورِ﴾.

وجدت في هذه الورقات ما يقدح في نفسي شرارة العمل بالعلم والتعظيم لشعائر الله فرجوت الله في كتابتها تنبيه غافل أو تعليم جاهل وقد كتبتها في التاسع والعشرين من ذي القعدة في الثالث والأربعين والأربع مئة بعد الألف للهجرة. بلغنا الله وإياكم ختام العشر، وتمام الأجر، وطول العمر على طاعته إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم على نبيه محمد وآله وصحبه أجمعين وآخر دعوانا

﴿أَنِ الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ﴾.